

الإربعاء 17-10-2007

47- لغة الطبقة "البيئة"، والقيم الأخلاقية في الأمثال الشعبية

مقدمة

من بين المصادر التي يمكن أن تؤدي بنا إلى بعض ما نتصوره قد "حدث للمصريين" خلال لا أعرف كم سنة !!! وكلام من هذا، أن نقف وقفة موضوعية أمام ما يسمى "اللغة الشبابية" السائدة حالياً (أو لغة الطبقة "البيئة" عموماً). إن الموقف الفوقى من هذه اللغة يعمينا عن دلالتها التي قد تشمل بعض الإيجابيات الخليقة بالنظر والمراجعة.

منذ حوالى عامين: في ندوة كنت مسئولاً عنها (مع د. نبيل على) عن "اللغة والثقافة العلمية" في المجلس الأعلى للثقافة قدمت ورقة عن "حركية اللغة بين الشعر والشارع" عرضت فيها رأي من أنه من المناسب أن نقارن دور الشعر بقدرته على شحن الألفاظ القديمة المعتادة من خلال تشكيلاته البديعة وموسيقاه وصوره، أن نقارن هذا الدور- من حيث المبدأ- بما يقوم به الشارع المصرى عامة، والشباب خاصة، هذه الأيام وهم يقتحمون أصنام الألفاظ ليخلقوا منها لغتهم السريعة الغربية (علينا) يركون بها جمود الألفاظ الباهتة، ويرفضون تصنيفها أو خوائها.

العجيب في أمر الرافضين لهذه اللغة الجديدة أنهم يضمنون مختلف الفئات من الصفوة حتى المحافظين مروراً بأهل الفن (الراقى) والمثقفين المكتبيين والأكاديميين طبعاً، وغيرهم. يحدث هذا واللغة الفصحى تدهور تحت سمع وبصر كل هؤلاء، ولا يثير فيهم هذا التدهور رفضاً فموقفاً حاسماً مثلما تثيره اللغة الشبابية/البيئة أيها.

ثم خذ عندك هذا الأسى الذى يصاحب هذا الرفض دون تحفظ لهذه اللغة الجديدة، حين يترجم الرافض أو الناقد على لغة زمان، وذوق زمان، ورقة زمان، وأدب زمان.

في ملف الأخلاق الذى أشرت إليه أول أمس (الإنسان والتطور 2000-2001) قدمنا عدداً من الأمثال الشعبية التى بها جرعة من الأخلاق السلبية التى لا نتوقف عندها عادة ونحن نضرب الأمثال أو نستشهد بها، وما نحن نقوم بإيجازها وتحديثها لنربط بينها وبين اللغة/البيئة/الشبابية.

إن المثل الشعبي ليس له مؤلف كما نعلم، وإن كان يمثل جزءاً من التراث الشعبي، فهو إفراز لمرحلة من الوعي الشعبي ليست قصيرة في العادة، وفرق بين التراث الشعبي، والوعي الشعبي، وكلاهما من مصادر المعرفة المتعددة المناهل. ففي حين يرتبط التراث الشعبي بالأمثال العامية والملاحم الخكية، وبعض الأساطير، يمثل الوعي الشعبي حركية ثقافة العامة وهي تتحرك وتتخلق ويعاد تشكيلها باستمرار، نحن نتعلم من التراث الشعبي الذي أُلّفه الناس عبر التاريخ ماذا كان مما قد يكون ممتداً حتى الآن، ونتعلم من النظر في الوعي الشعبي هنا والآن "ماذا يحدث"، والربط بين المصرين قد يفيد في الكشف عن بعض ما "حدث" و"ما يحدث" في أن، فإذا كانت الأمثال الشعبية تعطينا مثلاً لما كان سائداً من توجهات ومواقف وطباع وأخلاق لفترة ليست قصيرة حتى استقر المثل الشعبي واستمر وطال عمره إلى أن وصلنا، فإن اللغة الشبابية تعطينا حركية الشارع الآن بين الشباب خاصة، ولا سيما من ينتمون إلى الثقافة التي أطلقوا أو أطلقنا عليها لفظ "البيئة"، بما في ذلك ثقافة الإدمان.

قبل أن أنتقل لفحص بعض عينات اللغة الشبابية كعلامة على ما "يحدث للمصريين"، قلت أعرض بعض الأمثال الشعبية التي شاعت من قديم، والتي أفرزها الوعي الشعبي المصري خلال حقبة من الزمن لا نستطيع أن نحدد ما توقعينا ولا مدة. أعرض هذه الأمثال التي بها دعوة لعدد من المواقف والتصرفات والأحكام الأخلاقية يتضاءل معه ما نتهم به اللغة الشبابية، أو لغة "البيئة"، السائدة بيننا اليوم.

بديهى أنى لا أَدافع عن هذه اللغة الجديدة على طول الخط، لكنى أحاول أن أتذكر، وأذكر، أن هذا الموقف الفوقى حركية وعى الشارع وهو يتحدى، ويخلق لغته، ويصنع ثقافته، لن يفيد لا في فهم ما مجرى، ولا في الإسهام في الإحاطة به وتوجيهه إن لزم الأمر، أو استطعنا.

بعض الأمثال الشعبية الأخلاقية

الشائع عادة عن الامثال الشعبية أنها حكم رصينة، ونقد ذاتى وتهذيب وإصلاح، دون إغفال دورها في تصوير سلبيات فترة معينة من الزمن، أو ترجيح قيم سادت في مرحلة ما من مسيرة الواقع، ترجيحاً لا يعنى بالضرورة الموافقة، ولقد سبق أن نبهنا مراراً في باب "مثل وموال" الذى انتظم فتره طويلة في مجلة الإنسان والتطور أن الاستشهاد بالأمثال ليس دعوة لتطبيقها بما هي كما هي. بل قد يصل الأمر إلى أن يكون الاستشهاد بالمثل هو تنبيه لتطبيق عكس ما يقوله المثل، وقد يكون كشفاً لأمر مجرى بشكل ملتبس، فيعريه المثل. ومع ذلك، فكثيرون منا يتصورون أن للأمثال قيمة أخلاقية إيجابية في ذاتها، في حين أنها قد تفيد في كثير من الأحيان معانٍ سلبية، بل وقد تساعد على الحفز إلى ممارسة هذه القيم السلبية، مثل الدعوة إلى قبول الذل، أو التأكيد على التمييز الطبقي أو العنصرى، أو تشويه صورة الذات الوطنية أو القومية، أو إهانة المرأة وتحقيرها.

إن **الوعي الجماعي** قد تبلغ به القسوة مبلغاً لأخلاقياً مما ينبهه إلى أنه ليس كل ما يجمع عليه الناس، أو أغلب الناس، هو أفضل، أو أصدق، أو أرحم. بل لعل العكس يكون أقرب للصواب أحياناً كثيرة. نتذكر - مثلاً - محاكمة الحلاج، والقاضي يتذرع بحكم العامة، بعد أن استدرج الحلاج حتى "يبوح"، لكي يصدر فيه ما قرر ودبر من حكم بالإعدام متذرعاً بحكم العامة، نذكر كيف ينهى عبد الصبور مسرحيته الرائعة " مأساة الحلاج" بتذكيرنا بقسوة المجموع. (أنتم حُكْمْتُمْ فَحُكْمْتُمْ). نتذكر الآن ونقارن كيف تطور تشويه الوعي العام بألعاب المال والدعاية لتشكيل وعي أغلب الناس لتخليق قيم استهلاكية، حتى يكاد يصل الأمر إلى تخليق غرائز استهلاكية جديدة تتناقضها الأجيال لترويج سلعة، أو تعميق أيديولوجية، لا تخدم إلا طبقة منفصلة عن كل ما هو أخلاق، بل عن كل ما هو فطرة، أو قوانين بقاء (هذا، ناهيك عن تشكيل الوعي العام لتبرير الظلم والقتل وعمادى الإبادة).

سوف نقدم فيما يلي عدداً من الأمثلة التي اعتيرناها تمثل **"الجانب الآخر"** من الأمثال الشعبية، أعنى **الجانب اللاأخلاقي** بشكل أو بآخر، وذلك تمهيداً للنظر بعين موضوعية لما نسميه اللغة الشبابية/ البيئية، فيما بعد (في هذه اليومية غالباً).

1- "أصل الشر فعل الخير"

هذا مثل يبدو شديد الغرابة، ماذا يريد أن يقول؟

هل هو ينهى عن فعل الخير أم يشكك في جدواه؟ هل يريد منا أن نقتل بعضنا بعضاً خوفاً من أن ينقلب الخير شراً؟

أين هذا المثل من المثل الذي يمثل عكسه تماماً وهو الذي ينبهنا ألا ننتظر العائد السريع لفعل الطيب. ذلك المثل الجميل الذي يقول **"إعمل الطيب وارميه في البحر"**.

2- "إضرب البرئ لما يقر المتهم"

المثل ينبهك ألا تتردد في ضرب البرئ، برغم أنك تعرف أنه برئ، وليس حتى متهماً يمكن أن تثبت براءته، أو أنه يضرب حتى يقر بذنب لم يرتكبه، هذا المثل يوصي بضرب البرئ وهو يعترف أنه برئ منذ البداية، لماذا؟ حتى يقر المتهم خوفاً من أن يأتي عليه الدور فيعذب كما رأى البريء يعذب أمامه؟ ياه!! برغم أننا لا نعرف حجم ولا مدى ما يجرى من تعذيب في سجوننا وأقسامنا هذه الأيام، لكنني أتصور أن التعذيب قد يقتصر على المتهم، أو حتى يمتد إلى أهله لتعذيبه عن بعد، لكنه متهم على أية حال، ولكنه - التعذيب - ربما لا يركز هكذا بوضوح على البريء كما يقول المثل (لست متأكد).

3- "إطعم مطعوم ولا تطعم محروم"

سبق أن فسرنا هذا المثل تفسيراً إيجابياً، (الإنسان والتطور: العدد الثالث والعشرون لسنة 1985). وقد بدا ذلك التفسير للكثيرين تعسفاً. عرضنا آنذاك تيريرا أو تفسيراً يقول: إن هذا المثل قد لا يوصي بإطعام المطعوم دون المحروم، ولكنه ينبهه إلى درجة ما من الحرمان تجعل كل ما يُلقى إلى المحروم

يكتفى في دوامة طلب المزيد، حيث أن الحروم لا يقدر ما يُعطى، وهو لا يشبع مهما أعطى، في حين أن من سبق أن تذوق طعم ما يعطى يمكن أن يقدره، فيرتوى به إذ يكتفى بالقدر المناسب.

كثير من القراء والاصدقاء اعتبر هذا التفسير تعسفا وترييرا لحرمان الحروم، وتدعيما للموقف الظالم بأن من عنده يُعطى ويُزاد، ومن ليس عنده يهمل، ويُنكر، ولو حتى مات جوعا واحتياجا. هذا التفسير الأخير، الذي هو تصحيح للتبرير المتقدم، لوصح ، فإنه يكون مثلا سيئا قاسيا ظالما قبيحا لأخلاقيا، بلا شك.

4- اللى بعيد عن العين بعيد عن القلب

إن العلاقات الحقيقية بين البشر لا تشترط بالضرورة حضوراً عيانياً مائلاً للآخر أمام "حواسنا" طول الوقت، لكن المثل هنا يشير إلى اعتبار أن عواطفنا عادة ما تحتفظ بها لمن يُثقلُ أمام حواسنا، دون غيره، إن العلاقة الحقيقية هي رحلة مستمرة بين الداخل والخارج، بين المائل في وعينا والمثير لأحاسيسنا وبالعكس.

المثل بهذه الصورة ينبه إلى نوع من العلاقات مرتبط باللمحة الراهنة، والصفقة الجاهزة، مع إنكار أى التزام ممتد أثناء الغياب عن الحضور الفعلي أمام الحواس "عيني عينك"، وأنا ننسى الغائب بما يؤكد مثل آخر يقول: "الغائب ما لوش نايب، والنعمسان غطا وشه"، ليستحوذ "الحاضر" على المكاسب المادية، والوجدانية معا دون الغائب والنائم حتى لو كانوا أصحاب حق، أو أصحاب الحق!!!

5- اللى يشبع بعد جُوعه إدعوله بثبات العقل

يشير هذا المثل إلى أن شدة الحرمان قد تكون من القسوة بحيث إذا زال هذا الحرمان بالإشباع، وهو لا يزول عادة، لا يمتل الحروم أن يشبع، أو هو لا يكاد يصدق، حتى أنه يفقد توازنه خاصة إذا ما لُوِّح له بارتواء ماء، ارتواء لم يكن ينتظره أى ليس في حسابه.

لا يخفى من هذا المثل ما فيه من إنكار حق الجائع أن يشبع، إن المثل يستبعد أن يشبع من طال جوعه حتى يجمد ويتوازن، بل إنه يرجح أنه إذا شبع يُجن: إما لأنه لم يتوقع الشبع أصلا فهو لن يشبع مهما أكل، وإما لأنه لا يمكن أن يشبع لأنه محروم. وبالتالي هو مثقوب لا يمتلئ، (كما في المثل قبل السابق) .

هناك مثل مواز لا يمكن أن يذكر بالفاظه الأصلية يقول "زى اللى عمره ما شاف لحمه شاف" لحم" امه اتهيل". الهيل هنا هو ما يقابل ما يقوله المثل الحالى: "إدعوله بثبات العقل".

6- إن جاك النيل طوفان حط إبنك تحت رجلك

هذه دعوة صريحة إلى النجاة على حساب أى آخر، حتى لو كان هذا الآخر هو ابنك شخصيا.

لا يمكن التغاضي عن ما في هذا المثل من واقعية مرة، وهو يذكرنا بيوم القيامة، يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكن الفرار يوم القيامة شيء، وأن يستعمل الواحد ابنه كأداة لنجاته، إذ يضعه تحت قدميه ليطفو هو ولو قليلا، ولو مؤقتا. هذا هو المعنى السلي الذي يشير إليه هذا المثل.

7- رب ابن ابنك، وابن بنتك لأ

هذا المثل لا يشير فقط إلى تفضيل الإبن على البنت، ولكنه أيضا يشير إلى علاقة الملكية التي تربط الإبن بأبيه، وبعبصه، دون البنت. وبما لبت المسألة كانت قاصرة على التمييز في العطاء، أو الإرث، أو الفرص، لكنها تشير إلى "استخسار" التربية. والتربية قد تشير إلى الرعاية والإنفاق، كما قد تشير إلى القدوة والنصيحة، والمثل ينهي بشكل واضح عن الامتداد غير المشروط في جيل لاحق، وأن شرط الرعاية التربوية هو انتماء الذكور انتماء عصب مباشر، هذا معنى قديم يتردد بكل لغة يقوله شاعر الفصحى:

"بنونا بنو أبائنا، وبناتنا، بنوهنّ أبناء الرجال الأبعاد"

ومع شدة قبج مثل هذا الشعر (والقبج بالقبح يذكر) نلاحظ أن زوج البنت وأهله هنا أصبحوا يمثلون "الرجال الأبعاد"

8- على ما تتكحل العمشة يكون السوق حرب

تتكرر الأمثال العامية التي تهين القبح بقسوة أيضا، وهي تنكر أصلاً ذلك الجمال الكامن فيما يسمى قبجاً، وكأن من حرم الجمال قد أذنب في حق قائل المثل. ثم أمثلة موازية تقول: "إيش تعمل الماشطة في الوش العكرك"، ودرجة أقل: "الخلو حلو ولو قام من النوم، والوحش وحش ولو غسل وشه كل يوم".... إلخ

9- لبس الاسر امر واضحك عليه

يقال إن الإنجليز وهم يحتلون السودان، كانوا ينعمون على بعض الكبراء بحلة حمراء وهات يا كذب عليهم حين يصورن لهم أن مجرد تغيير الملابس هو تكريم لهم وإيهام بمساواة ما. وواضح ما في هذا المثل من تمييز عنصري، وامتهان، واستعلاء، واستهانة. على أن لهذا المثل تطبيق معاصر يجري حالا حين يلبس الناس "اللى فوق" بعض الشعوب الإفريقية بعض مظاهر المدنية، مثل فرض لغة فرنسية عليهم، أو تصوير ما يمارسونه من قبلية مقاتلة على أنها ديمقراطية حديثة، أو تصدير بعض قصور الإنجازات التقنية للاستعمال الاستهلاكي الضحل، كأن الشكل الحضاري يتحقق بمجرد استعمال أدوات تشبه ما يستعمله المتحضرون.

وهناك تطبيق أخفى يتم في مجال نشر الأبحاث العلمية، حين يصورن لنا أن النشر في مجلات عالمية هو اعتراف بقيمة البحث العلمية، ومن ثم فنحن علماء مثلهم، يا فرحتي!، والدليل هو أنهم سحوا لنا أن ننشر عندهم!! والأمر ليس كذلك تماما في معظم الأحيان.

أيضا، يحدث مثل ذلك في تولية بعض علماء العالم الثالث أو الرابع مناصب قيادية أو شبه قيادية في المؤسسات والجمعيات العالمية، إما لأن الدور قد جاء على قارة إفريقيا مثلا، وإما لأن هناك حاجة إلى الظهور بمظهر المساواة، وكلام من هذا.

وهنا تصبح الصورة المكافئة المعاصرة للمثل تقول: "لبس الإفريقي أو الآسيوي، منصبا رئاسيا، واضحك عليه".

تقوم أيضا شركات الدواء بتزيين بعض الوجوه، وتقديمهم لأنفسهم وللمجتمع العلمي والمجتمع الطبي العالمي، باعتبارهم روادا في مجالهم، وبعد أن صدقوا أنفسهم، هات يا ضحك عليهم، وعلينا، وهات يا نصب.

10- لولاك يا لسان ما انسكيت يا قفاي

يتضمن هذا المثل دعوة صريحة للنفاق والصمت الجبان، وهي ليست دعوة للتخلي بالصمت الخذر، أو للتحفظ في الكلام، فإن الذي يسك على قفاه مجرد أنه نطق برأى أو إشار بمشورة لا يكون سكوته حكمة، وحسابات.

11- جور الغز، ولا عدل العرب

كلمة الغز كانت في الأصل تطلق على الأتراك، ثم امتد معناها إلى التمييز الطبقي بصفة عامة.

لأخلاقية هذا الموقف لا تقتصر على التمييز الطبقي، أو التفرقة الإثنية، ولكنها أيضا تكمن في تفضيل الرضا بالذل من سيد لأنه سيد بأصله، عن العدل من عامة الناس. إن شيوع ثقافة الذل والرضا بالظلم من أي سلطة سواء كانت سلطة السادة، أو الطبقة الأعلى، أو المستعمر، أو أي شيخ أو كاهن. قبول الظلم هو أمر قبيح ينبغي أن يرفض بغض النظر عن من هو الظالم.

12- إن قابلك الاعمى خد عشا، مش حا تكون أرحم مالي عماه

هذا مثل يبدو لي في منتهى القسوة، وهو يرر التمداد في ظلم الأضعف، بل إنه يتناول حتى على رحمة ربنا، وقد أزعجتني حتى أنني رفضت أن أضيف مزيدا من الشرح يبين مدى قبحه.

الخلاصة:

لعلنا نلاحظ ونستنتج من خلال كل ما تقدم

أولا: إن الوعي الشعبي قد يكون شديد القسوة، وعلينا ألا نستسلم بسهولة لما يخرج منه حتى لو تعمق وتأصل واستمر في "مثل" أو "لغة جديدة" أو أسطورة أو غير ذلك.

ثانيا: إن الزعم بأن أهل الزمن الفائت قد يكونون أقل قسوة، وأكثر حكمة، هو زعم مشكوك فيه.

ثالثا: إذن: إن أي لغة فيها وفيها، خصوصا اللغة التي يفرزها الوعي العام، في فترة بذاتها

رابعاً: إن تسجيل معالم القيم السلبية في مثل عامى متداول، أو قول شائع، في فترة بذاتها، لا يعنى الإقرار باختوى، إنه نوع من إعلان واقع ما، وبالتالي هو يتضمن بالضرورة دعوة لدراسة دلالات الذى يجرى حولنا، أو الذى وصل إلينا سواء كان مثلاً شعبياً أو لغة شبابية أو رطاناً مستورداً.

خامساً: ومع ذلك فإن قسوة الوعى العام التى لا يمكن إغفالها، لا يمكن اتهامها في ذاتها لأنها قد تكون رد فعل دفاعى في فترة من الزمن.

سادساً: إن هذا المدخل يدعونا للنظر في دلالات لغة الشارع الجديدة بشكل أحر غير الرفض والحكم الفوقى على طول الخط. وهذا ما سنعود إليه لاحقاً إن شاء الله وامتد العمر.